سوسيولوجيا النص الروائي في النص العربي المعاصر

أ.منصوري مصطفى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة سيدي بلعباس

1-تقديم:

أخضع النص الروائي منذ أن تأسست أجناسيته ، لعدد كبير من التجارب تطمح للإمساك ببنيته واستكشاف دلالاته باعتباره نصا مفتوحا تستجيب مكوناته لمختلف القراءات مهما تبيات منطلقاتها الفكرية و تعددت غايتها . فصار بالإمكان الحديث عن الفرد في الرواية وعن المجتمع في الرواية أوهما معا.

إذا كانت المقاربات الأولى قد اهتمت بظروف إنتاج الرواية و بالملابسات التي تسهم في بلورته، اعتمادا على السياقات الخارجية ، فإن المقاربات الجديدة قد حاولت ملامسته من الداخل بعيدا عن الخارج الذي كثيرا ما أوقع معتمديه في قيد الأحكام المسبقة التي تحجب الرؤية الواضحة، فتجعل الهم موجها إلى ما ليس له علاقة مباشرة بالنص ذاته .

ضمن سلسلة مبدأ التجريب ، جاءت سوسيولوجيا النص الروائي ساعية إلى استدراك بعض الثقوب التي حوتها قراءة النص اجتماعيا، معتمدة على أسس جديدة، مستهلة كافة القراءات على اختلاف مشاربها الظاهر، لتأسيس جهازمفاهمي، انطلاقا من أن البيانات اللغوية تحمل صورة البيانات الاجتماعية . فالصراع داخل المجتمع يمكن أن يتحول إلى صراع ضمن البناء اللغوي.

عد "بييرزيما"Pierre Zima من خلاله كتابه "سوسيولوجيا النص الأدبي"، تتويجا لمسار نقدي يحمل مقولة المجتمع، ابتداء من "لوكا ش" وانتهاء ب"لوسيان غولدمان" و"باختين"..

استجاب النقد العربي الحديث لهذه الدعوة الجديدة، بعد أن أدرك عدم جدوى مقاربة النصوص الروائية وفق تصور قبلي، إذ لا شيء يفسر النص إلا النص . وإذا كانت مرحلة الاهتمام بالنص قد شابهما نوع من التعثر لاعتبارات ذاتية و أخرى موضوعية، فإنها مع "سوسيولوجيا النص" لم تلق الرواج نفسه، لحداثة المنهج من جهة، وعدم نضج أدواته وضبابية منطلقاته الفكرية على الأقل عند عارضيه العرب. وتبعا لذلك فإن مستحضري "سوسيولوجيا النص" لا زالوا يعدون على الأصابع في حدود اطلاعنا .لكن ذلك لا يمنع من تتبع خطواته الأولى، فرعياته في عهده الأول، قد تكفل له النضج ليشتد عوده فيخترق مجالات جديدة ، إذ النقد المعاصر صار يستحدث أدواته باستمرار مما سيدعو النقد العربي إلى التجاوب مع الإنجازات الجديدة. وإلا بقي يردد مقولات ومفاهيم، تجاوزها الزمن.

2- سوسيولوجيا النص الروائي:

أظهر "بييرزيما" قدرة هائلة على تركيب طروحات كثيرة ،وعلى بلورة أفكار تبدو متناقضة .من أجل التأسيس لما سماه "سوسيولوجيا النص الأدبي". فهو لم يعرض جهازه المفاهيمي إلا بعد

استعراض كافة المحاولات السابقة عليه. والتي اتخذت من "السوسيولوجيا" رافدا لقراءة النصوص فكان همه إظهار إخفاقات تلك المناهج،في الوقت نفسه كان يبلور أدواته انطلاقا منها و تاليا" لا يمكن اعتباره مؤسسا لسيولوجيا النص الروائي و إنما مبرر له"(1) ما دامت مقولات "لوكا ش"، "غولدمان"، "باختين"، حاضرة بأكثر من وجه في نظريته.

يربط "زيما" مفاهيم لوكا ش بفلسفة "هيغل" القائمة على مفهوم الكلية « totalité ». فالواقع لا يمكن فهمه إلا كلا متسقا، أما عزل الظواهر الفردية وعدم النظر إليها مجتمعه فيسميه تجريدا. و من ثم فالحقيقة "تمكن في الكلية و لكن الكلية ليست إلا الجوهر الذي يتحقق في الصورة، و تلك الفلسفة التي تفهم الكائن ككل بإمكانها و حدها أن تفهم بشكل ملموس الجوهر المختفي وراء الظواهر" (2) وبذلك اعتبر "لوكا ش" معياريا، ينطلق من جمالية هيغل خاضعا للخارج، مختزلا مفهوم الأدب في المفهوم الماركسي.

إذا كان لوكا نش قد حاول بلورة قواعد جمالية كونية انطلاقا من أعمال يعينها" بلزاك، سكوت" فإنه لم يقو على مسايرة تحولات الكتابة. و بقي جبيس نماذج تمثل في رأيه الواقعية الاشتراكية و الواقعية النقدية. علما أن مفهوم الواقع الذي صنف على هديه "لوكا ش" ملتبس وغامض و إشكالي. فما هو واقعي عنده قد يكون غير ذلك عند غيره. إذكلما اختلفت معايير المفهوم، صنفت الأعمال وفقها، و تباينت درجة واقعيتها طبقا لتلك المعايير.

ومن ثم تعد مقولة "إن الشكل الفني القادر على بناء الخاص في النمطي هو وحده الذي يجوز أن يسمى واقعيا" (3) غير ذات قيمة عند من يرى واقعية الشكل الفني في القدرة على البناء خارج النمط.

لا تختلف طروحات "ل.غولدمان" في رأي "زيما" عما اقترحه "لوكا ش" فكلاهما يستندان على فلسفة"هيغل" القائمة على فنومولوجيا الروحphénoménologie de l'esprit التي تعتمد مبدأ الكلية. فما هو فردي لا يمكن فهمه إلا في تجانسه مع الكلي. و إن كان "غولدمان" يعدل عن صرامة المقولة، حين رأى أن الكل في حاجة أيضا إلى توضيح بناء على ما يحويه من عناصر.

ينفر د "ل. غولدمان" في سياق تطوير منهج "سوسيولوجيا الأدب الرواية" بمقولة صارت مرادفة لجهازه المفاهمي، سماها "رؤية العالم ". vision du monde وهي عنده مجسدة لطموحات جماعة ما أو طبقة اجتماعية تتعارض مصالحها مع جماعة أخرى.(4) و بذلك فالعمل الأدبي لا يرتبط بمؤلفه و إنما هو لسان حال قيم اجتماعية لطبقة ما .غير أن "زيما" لا يستسيغ مثل هذا الطرح. فرؤية العالم لا يمكن إخضاعها للتجربة. و لاشيء يدل على واقعيتها. فرؤية العالم "التي نجدها في رواية عظيمة لا تعبر عن الوعي الأمبريقي الواقعي لأعضاء الجماعة و لكن الوعي المثالي أقصى الوعي الممكن ، فنحن بصدد وعي ممكن. لأننا نجده باطنا في العمل حيث يحلله ويعيد بناءه بناء على علم اجتماع الأدب". (5) و لعل السبب نفسه الذي علل به" بيير ماشري" Pierre Machery رفضه لاعتباره النص كلا متجانسا و تعبيرا عن رؤية العالم .فما " يجب البحث عنه في

النصوص ، ليس علامات تماسكها و لكن دلالات التناقض المادي" المحدد تاريخيا" الذي أنتج هذه النصوص و الذي يظهر في شكل صراعات تحل بشكل متفاوت". (6) وبذلك فالنص يظهر إيديولوجيته مرغما و يضطر إلى أن يقول شيئا و في الوقت نفسه يقول أشياء أخرى، و تلك طريقة من طرق كثيرة في البحث عن الإيديولوجي في النص، فقد تلتمس في خطاب غير واع inconscient فتتجه أدوات الإمساك بها إلى رصد الفراغات ، الغيابات والمسكوب عنه.(6) و تلك بعض وجوه لا تماسك النص و عدم اتساقه ، إذ التناقض أساس بنيته.

في ضوء الثغرات التي اعترت المناهج الاجتماعية في دراسة العمل الأدبي و التي حصرت مجال دراستها في الخارج بدل الولوج إلى الداخل، اقترح "بيرزيما" أدواته في سبيل التأسيس "لسوسيولوجيا النص الأدبي" التي تجسده الرواية على وجه التحديد. 3- من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي:

استمرت محاولات البحث عن طبيعة العلاقة التي تجمع الأشكال الأدبية بالأسيقية الاجتماعية، و عن السبل الكفيلة برصد تظهر الاجتماعي في الأدبي. و إذا كان مثل هذه البحث غير مجد ، مادامت حقول معرفية كثيرة تتقاسم مثل الاشتغال نفسه، فإن حصر مجال الدراسة في النص دون سواه من شأنه أن يقلل من وطأة الإشكاليات المصاحبة لمسار استكشاف البنى الاجتماعية في الأدب. و أن نخفف من الإحساس بضآلة النتائج المستخلصة من ربط سياقين متباينين ، لا يجمعهما إلا النقد في ذاته . فما هو اجتماعي لا وجود له إلا في وعي القارئ،إذا سلمنا بمقولة إرجاء المؤلف.

لم يتمكن "بييرزيما" من الانتقال إلى سوسيولوجي النص الأدبي، إلا بعد أن تجاوز "سوسيولوجيا الأدب" و استحضر أدوات إجرائية من حقول ظلت إلى عهد قريب منشدة الموضوعية والحياد و معلنة تدمرها من السياق سيرا وفق مارسته اللسانيات.

يستدعي "زيما" توجهات تحليلية كثيرة، أسهمت في اقتراح سبل الإمساك بالدلالة في النص. و إذا كانت إحالته كثيرة على السوسيولوجيا الأدبية للألماني " تيودور آدو رنو Thedor Adorno الذي يعتبر الأدب مقاوما للإيديولوجيا. ومن ثم فقرات النص، يجب أن تمتص الجوانب الإيمائية فيه التي لا تأبه بالملاحظات المفهومية فإنه لا يتردد في استحضار انجازات السيميائيات و علم الدلالة ممثلة بالأخص ب"ج. كرستيفيا" و" آج – غريماس" فيما لا يجد قيمة كبرى – في إطار ما يشتغل حوله – لسرديات "جيرار جنبت" التي ركزت على ضبط قوانين الحكي دون مراعاة الأبعاد الإيديولوجية لتلك التقنيات و لا طبيعة العلاقة بين الحكي و الخطاب.

في حين أن التوجهات السيميائية يمكن أن تسهم في وصف الروابط التي تجمع الأدب والمجتمع على مستوى الخطاب. وقد سمح هدا الاستدعاء المنتقى بدقة بتحديد مفهوم سوسيولوجيا النص. حيث حصره في وضع علاقة منظمة بين المفاهيم السياسية التي تحمل طابعا اجتماعيا ،

والعمل على تطوير الأبعاد الاجتماعية اللغوية. وفق ما تقدمه السينمائية والنظريات الاجتماعية (7) .مما سيسمح "لزيما" بتحديد مستويين نصيين بوصفهما بنى لغوية اجتماعية.

أ- المستوى المعجمي و الدلالي:

ينطلق "بـزيما" من تصورات واضحة ترى القيم الاجتماعية مستقلة عن اللغة وأن الوحدات المعجمية و التركيبية و الدلالية يمكن أن تجسد مصالح اجتماعية ما، قد تتعارض مع مصالح جماعة آخرى. و لا يرتبط هذا التجسد على المستوى المعجمي –على أهميته- فحسب، بل يمكن للدلالات أن تستكشف أبعاد ارتباط البنيات اللغوية بالبنيات الاجتماعية. وذاك ما يفسر استدعاء سوسيولوجيا النص الأدبي لجهاز "غريماس" المفاهمي. كلما ما كان الأمر خاصا بإمساك الدلالات.

ب- المستوى السردي:

يصنف "زيما" عمل "فلاديمير بروب" ضمن الأعمال الرائدة التي اشتغلت حول تلازم الأساس الدلالي مع بنية النص، انطلاقا من تتبع مسارات الحكاية في مدار الانتقال من وضع إلى آخر. ولا يقل عمل" غريماس" شأنا، بل إنه حاول سد بعض الثغرات التي تجاهلتها مورفولوجية الخرافة ، فالبنية الدلالية العميقة لأي نص سردي هي المسؤولة عن توزيع الوظائف الفاعلة fonction Actantielles و الفاعل كما يعرفه "جريماس" مقتفيا تصور"بروب"، يمكن آن تكون له صفة جماعية أو غير إنسانية.(8) مما سيتيح لسوسيولوجية النص الروائي رصد الفاعل- آو الفاعلين- في علاقته مع الجماعة أو مع جماعات آخرى وبالتالي يمكن لحزب سياسي آن يتجسد في فاعل. ومن ثم يصبح الوقوف على الدلالية مقرونا بالتحليل الفاعلي الذي تسكنه دلالته وفق مسار عملية التحقق.

و الظاهر آن البنية العاملية، كما قدمها "غريماس" تصلح لكافة الخطابات. مادام توزيعها مرتبطا بإعلان الرغبة.

قدم "غريماس" نموذجه، حول ما يسمى بالإديولوجيا الماركيسته التي تصبح فيها الذات إنسانا و الموضوع مجتمعا بدون طبقات يتآزر معه مساعدون. و يعترض سبيل الرغبة الطبقات التي لا تؤمن بالماركسية .(9) بيد آن سوسيولوجيا النص تحتاج في اعتبار "زيما"لأدوات إجرائية أخرى مرتبطة باللغة. لا تقدم الدلالة البينونة اقتراحات حولها إذ " يجب من أجل وضع علاقات بين النص الأدبي وسياقه الاجتماعي، تقديم العالم الاجتماعي كمجموع لغات جماعية، تظهر بأشكال مختلفة في البنى الدلالية و السردية للتخيل". (10) و تلك إشارة إلى حوارية "باختين" التي تسند على تعدد الأصوات Polyphone كما لاحظها في روايات ديشوفسكي التي لا تتميز بكلام الشخصيات و لا لكثرها "بل تعدد آشكال الوعي المتساوية الحقوق مع مالها من عوالم (.....) في الوقت نفسه تحافظ على اندماجها مع بعضها البعض" (11) و هو التصور نفسه الذي يجعل الجماعات

المتصارعة في مجتمع متصارعة أيضا في اللغة، و قد تنتقل هذه الحوارية إلى التناقض لترى فيه سوسيولوجيا النص مقولة اجتماعية.

تلك بعض أهم خطوط التوجه الجديد في علم اجتماع الأدب المتوج لمسار طويل يروم اعتماد المحايثة تبعا لتحق الاجتماعي في الأدبي . و لا يهم هنا عرض الجوانب التطبيقية في طروحاته ، بقدر ما نبتغي رصد انتقال المفهوم إلى النقد العربي و كيفية تلقيه.

4* سوسيولوجيا النص الروائي في النقد العربي:

يجمع متتبعو الممارسة النقدية العربية على رواج" المنهج السوسيولوجي" في الدراسات الروائية ،إلى درجة صارت فيها الرواية ملازمة لما هو اجتماعي.وذلك راجع بالأساس إلى طبيعة مفهوم الأدب عند العرب الذي كثيرا ما ارتبط بقضايا المجتمع و حمل مسؤولية احتواء آنات الطبقات المحرومة والصدور عنها. و إذا كان مثل هذا النقد قد تباينت اتجاهاته داخل المنهج السوسيولوجي نفسه، فإن الغاية التي رصد له تكاد تكون واحدة.

يقسم حميد الحمداني" النقد الاجتماعي في العالم العربي، إلى ثلاثة أنماط، تبعا للمنطلقات النظرية التي يحددها كل نمط في مقدمة دراسته. يسمى النمط الأول ما له طابع سياسي وايد يولوجي مباشر، و يطمح إلى جعل الروايات توافق الرؤية التي يتبناها ، ومن نماذجه"(محمد كامل الخطيب"في : المغامرة المعقدة ، مقدمة تاريخ العلاقة بين المجتمع العربي والغربي كما يظهرها الفن الروائي في نشوته و تطوره ، أحمد محمد عطية، البطل الثوري في الرواية العربية الحديثة). أما النمط الثاني و يقصد به ماله طابع اجتماعي يتخذ شكلا "موضوعيا" وهو إذا كان قد تخلص من المنطق الإيديولوجي المباشر فإنه بقي محتفظا بأصوله المادية. ومن نماذجه("محمود شريف" أثر التطور الاجتماعي في الرواية العربية الحديثة- أحمد إبراهيم الهوا ري، البطل المعاصر في الرواية المصرية). فيما يتبنى النمط الثالث مفهوم الرؤية باعتبارها وسيطا بين الروائي و العالم المادي. ومن أمثلته(عبد المحسن طه بدر، الروائي و الأرض).(12) أما نمط سوسيولوجيا النص فلا يجد له(إلا ملامح عفوية، ليست لها علاقة مباشرة بالرصيد النظري لرواد هذاالمنهج(13). غير أن النقد العربي في رصده لجوانب من البنية الاجتماعية قد راكم عدد غير قليل من المحاولات المستحضرة لإنجازات " سوسيولوجيا النص"، بعد كتاب الحمداني الرائد. وحري بنا تتبع خطواته ومنطلقاته، لاستكشاف بعض جوانب التحوير و التعديل الذي ميز تجربته مع الرواية العربية.

إذا كان من غير الممكن رصد كل تلك المحاولات لطبيعة المقام فإننا ستكفي هنا بالدراسات التي أعلنت استفادتها من التأطيرات النظرية "لبييرزيما".

يقيم سعيد يقطين في' انفتاح النص الروائي' جسورا متبنية مع سوسيولوجيا النص الروائي، تتجاوز في الوقت نفسه الدراسات السوسيولوجية المضمونية، والسر ديات البينونة التي تبناها في

تحليل الخطاب الروائي. وهو تحول يظهر إخضاع بقطين أدواته للتجريب المستمر، كلما بدا له نقص فاعليتها. و من أجل ذلك يستدعي تأطيرا منهجيا من" زيما" و"كريستفا" في سبيل التأسيس لما سماه السوسيوسرديات، القائمة على تعريف خاص للنص. يتطابق مع إطاره المنهجي. فهو عنده" بنية دلالية تنتجها ذات فردية أو جماعية ضمن بنية نصية منتجة في إطار بنية ثقافية اجتماعية14. ومن ثم يقسم مكوناته إلى بنية دلالية، بنية نصية، وبنية ثقافية واجتماعية.مما سيخول له الانتقال من الخطاب إلى النص.

يرى بقطين انطلاقا تصور "زيما" أن كل النصوص على اختلافها تنتج ضمن بنية اجتماعية محددة، و أن التفاعل يتجسد في البنية نفسها. ما دام الأديب لا يكتب خدمة للاجتماعي والسياسي، و إنما يكتب من خلال النصوص و بواسطة لغة مجتمعه الذي يظهر كتجل لساني. أما عن اهتمامات سوسيولوجيا النص الأدبي فيحصرها "بقطين" في:

آ- الربط بين النص و البنية النصية الكبرى (متعايلة على المجتمع باعتبارها ثابة)) و البنية السوسيو نصية .

ب- الربط بين النص و المجتمع كما يتحلي في تفاعل النص مع البنية النصية الكبرى والسوسيو نصية من خلال النص ذاته.

ت- عدم انغلاقية النص و البنية النصية الكبرى و الصغرى و البنيات الاجتماعية فقد تتفاعل مع بنيات خارجية.

ث- يتم هذا التفاعل من خلال فعل نموذج: الكتابة و القراءة (15).

ينتقل "بقطين" يعد تبرير منطلقاته إلى الجانب التطبيقي لأعمال روائية، سبق آن درسها في "تحليل الخطاب الروائي" وفق مقتضيات التقسيم الثلاثي" الزمن –الصبغة –الرواية.

في رصده لجوانب من البنية الاجتماعية، يعتبر "يقطين" شخصيات' الزيني بركات' من واقع تاريخي وواقع اجتماعي، تتفاعل مع شخصيات أخرى. و بناء على ذلك يستنج آن الروائي يقدم شخصياته وفق رؤية للعالم. و هي عودة إلى البيوية التكوينية التي لم يجد في إ جراءاتها فاعلية كبرى. ثم يأتي دور تصنيف الشخصيات إلى مثقفه و قلقة تعكس صورة المثقف العربي .أما عن علاقة الأحداث بالزمن، فيرى آن روايات (عودة الطائر، الزمن الموحش ، الزيني بركات)، تحيل على مرجعيتها الزمنية. إما بطريقة مباشرة و إما ضمنية. و يجد من الصعوبة بمكان الحديث عن انعكاس و إنما تفاعل. و لكنه لا يظهر طبيعة هذا التفاعل و لا تجلياته، إذ من السهل قلب معادلة الأدب/ المجتمع من انعكاس إلى تفاعل دون تحديد تحقات هذا التفاعل.

ضمن المساق نفسه يربط يقطين بين النص و البينية السوسيو نصية من خلال تحديد إطار إنتاج النصوص. فقد ربطها بالتحولات الاجتماعية و الإيديولوجية التي أعقبت مرحلة الاستقلال

وظهور أنظمة سياسية تبنى الفكر الاشتراكي والقومي. بيد أنه لا يبرر كيف تعامل النص مع بنية بتلك المواصفات. حملت فيها الشخصيات رؤية نقدية لما يحيطها ورؤية ناقدة للذات.

ج- إذا كان سعيد يقطين قد عد دراسته خارجة عن إطار الدراسات العربية التي قاربت النصوص الروائية وفق تصورات اجتماعية ، فإنه في مقابل ذلك لم يقدم أدوات واضحة حين إخضاعها للممارسة التطبيقية. فقد فقدت تلك الأدوات بريقها و نصاعتها بعد أن تحولت إلى استكشاف النصوص الروائية و قد يعود ذلك إلى مجموعة من الأسباب مرتبطة أساسا بوضع النقد العربي الحديث الذي لم يجد السبل الكفيلة للائمة ما هو نظري بما تطبيقي. نتيجة التطبيق الآلي لأدوات استوحيت من خصوصية نصية لا تتطابق دائما مع خصوصية النص العربي. يضاف إلى ذلك رغبة "يقطين" في الاستعانة بجهاز "زيما" المفاهيم و تجاوزه في الوقت نفسه. و هي معادلة يصعب التحقق من نتائجها إلى جانب عدم نضج المنهج ذاته في محاضنه الأولى، مما جعل الالتباس بين الاتجاهات السوسيولوجية ظاهرا في معظم الدراسات. لكن 'انفتاح النص الروائي' على الرغم من ذلك ، يمثل أنموذجا جديدا لتجاوز السوسيولوجيا التبسيطية و التأسيس لمنهج لا تبقى أدواته حبيسة منهج واحد.

في الإطار نفسه يندرج كتاب "عمر وعيلان " الإيديولوجيا و بنية الخطاب الروائي دراسة سوسيونائية في روايا عبد الحميد بن هدوقة" و بخاصة في فصل الرواية و الإيديولوجيا، حين عقد مبحثا سماه" الرواية و الإيديولوجيا من منظور سوسيولوجيا النص.

حدد الناقد منطلقات" سوسيولوجيا النص الروائي" من خلال طروحات "باخين" كما أشار إليها "زيما" الذي استفاد من اتجاهات السوسيولوجيا وتصورات الشكلانية البينونة، دون أن يكون ظلالها إذ " إن سوسيولوجيا النص في رأي "زيما " مطالبة بأن تناسق وراء معارضة "الكيف الشكلاني" بال" لماذا" الماركسي ، بل عليها التأكيد على قضايا تتجاوز الخلاف الإيديولوجي بمنهجين. "(16) وبناء على هذا الانتقاء ، قدم "عيلان" تصور "زيما" وأدواته التي استدعاها من حقول أخرى، رآها كفيلة بخدمة المنهج الذي تبناه .

يشعر القارئ لهذا المبحث تحديدا ، احتفاء بمنهج "زيما" و تهليلا لتبلوره. فهو من جهة يتخلى عن الاتجاهات السوسيولوجية التي تستحضر السياق لقراءة النصوص. ومن ثم تحملها مسؤولية البوح عما يعترف المجتمع من آنات و آهات، بل إنها أحيانا تعتسف التأويلات لتجعل النص مطابقا لحاجات الجماعة. ومن جهة أخرى لا تقصي الاجتماعي ذاته من النصوص الأدبية ، فالبنيات اللغوية تظهر البنيات اللسانية. و كأن "زيما" جاء ليخلص النقد السوسيولوجي المضموني من المآخذ التي عصفت بوجوده. بعد أن صار "النسق" هم النقاد و شغلهم الأساسي. و لعل ذلك ما يفسر اعتبار الناقد دراسته متقاطعة مع سوسيولوجيا النص بدعوى "السعي" للكشف عن الوضعيات السوسيولسانية داخل النصوص الروائية وتمظهراتها المختلفة و التي تشمل التشكيل البناء الجمالي للرواية"(17).

إذا كان مجال طرح تنظيرات "زيما" تكاد تكون متطابقة بين معظم من تناول "سوسيولوجيا النص" لاعتمادتهم على مصدر واحد، فإن انتقال تلك المفاهيم يتباين من ناقد لآخر تبعا لطبيعة استعابه للنظرية، و الإحساس الذي يصاحب مثل هذه المقاربة ، حيث يصبح التجاوز صفة ملازمة ، إما بالتحوير و التعديل و إما بالنقصان و الإضافة ، بيد أن التجاوز نفسه لا يتخذ الدرجة نفسها.

ينطلق "غيلان" في مبحث اشتغال الإيديولوجيا في بنية الحطاب الروائية في الجازية والدراويش" من خلال الجمع بين الصبغة السردية ، فالعلاقة بينهما" تقود إلى تشكيل الانطباع النهائي لدى المتلقي في إدراك طبيعة العلامة في الرواية، المبنية في جوهرها على تقابل في إشكال الوعي عند الشخصيات" (18). و هو جمع له ما يبرره من الناحية الإجرائية. فقد جمعهما "جنيت" و إن بمصطلحات مغايرة. حين قسم الخطاب الروائي إلى زمن، صبغة و صوت. و على هدي هذا الطرح، فكل رؤية سردية في الجازية و الدراويش تنفرد بصيغة خطابية محددة ، مادامت الرواية تتقاسمها رؤيتان سرديتان ، الأولى تضم الفصول(1- 2- 3- 5- 7) والثانية تنحصر في الفصول (2- 4- 6- 8) . كما يختلفان في طبيعة الراوي، ففي الرؤية الأولى الراوي جواني (مشارك) و في الثاني براني " الحكي (19). تلك ولا شك ملاحظة هامة، تظهر إستراتيجية الكتابة عند عبد الحميد بن هد القائمة على توزيع الأدوار التقنيات لتتلاءم مع الأحداث و الشخصيات. غير أن هذا التقسيم لوا نطلق من الصيغة إلى الرؤية و ليس العكس لكانت النتائج متباينة. ذلك أن طريقة عرض الحكاية أسبق من طرح سؤال من يرى ؟ فالحكاية عادة ما تقدم وفق اكراهات الكتابة، فإما أن يعاد إنتاج خطاب الشخصيات "حكاية الأقوال" و إما أن تترك الشخصيات تنتج خطابها. بناء على ما يرتضيه المؤلف المفترض و ليس الراوي. و إن كان الروائي هو منتج الخطا بات و لا علاقة للمؤلف المفترض بها.

يقدم الناقد نماذج من الرواية و يحللها وفق التصور الذي أسس له معتمدا على الرؤية مرة وعلى الصيغة و الصوت مرة أخرى. و سنكتفي هنا بنموذج واحد، لاستكشاف صيغة النتائج المتوصل إليها، في مسيرة اعتماد البحث عن دلالات الخطاب الروائي، فقد رأى أن "المقاطع الحوارية التي تدور بين الراوي / المشارك و الشاعر، فكرة واضحة عن جملة من القضايا الفكرية الإيديولوجية التي يبنى عليها موقف الشاعر" ففي مخاطبته للراوي الطيب:

- يبدو أنك تريد أن تخرج من السجن.

- إلى أين تذهب ما أنت فيه سجن صغير في سجن كبير ،إن المساحة التي هنا أو خارج السجن متساوية ، لا تتوهم أن هنا السجن و في مكان آخر الحرية.

و قد أتاحت أدوات "عيلان" النقدية وسم هذا الحوار ببينس وعي إيديولوجي،

يسعى للتغيير انطلاقا من رفض الواقع، وهو حكم لا يحمله رد الشاعر ، إذا ما يمنع من ربطه بالاستسلام للأمر و التقاعس عن التغيير.

الظاهر إذا أن" عمر عيلان" يتبنى طروحات "زيما" ولكنه لا يستدعي أدواته. فقد عارض استحضار منجز السر ديات باعتبارها بحثا في التقنيات دون الاهتمام بالدلالات، فيما أن تصور "غريماس" وحده الذي يمتلك خاصية ربط اللغوي بالسوسيولوجي ، و من ثم فالناقد يجاري " سعيد يقطين" في ما سماه " السوسيوسرديات" دون أن يعتمد الأدوات نفسها و "عمرعيلان" من هذه الوجهة أخضع "البينونة السردية" إلى امتحان عسير. حين أوكل لها مهمة الإمساك بالدلالات. وهي لا تملك جهازا مفاهيميا، يخول لها خوض هذه التجربة بأمان. غير أن مثل هذا الفعل يدفع النقد العربي إلى ارتياد آفاق جديدة. قد تكون بعض صورها في تركيب المناهج و الاتجاهات و دفعها للانصهار . ما دامت الغايات واحدة، و مثل هذا الطرح بارز في بعض الدراسات العربية حيث تتراحم مناهج مختلفة. وقد دلت بعض المقاربات للخطاب الشعري مثل هذا التراحم. مثل ما يظهر في مقاربة العتبات النصية، لشعر اليتم" في الجزائر، حيث ينحو "أحمد يوسف" السبيل نفسه، فاعتبر مقاربته" سيمائية تأخذ في حسبانها سوسيولوجيا النص في القيام بتركيب منهجي دقيق ، يراعي الهاجس الأسمى للمعارف المتباينة الأطر، لكون النسق السميائي حاملا لايديولوجية راقية تتمتع ببعض الاستقلال"(20). و ذاك يتوافق مع سوسيولوجيا النص فقد اعتبر "زيما التناص" ممارسة سوسيولوجية ، و العتبة إحدى تجلياته.

على خلاف المقاربات السابقة "سعيد يقطين" ،" عمر عيلان" يبحث "سعيد بنكراد" في سميولوجية الشخصية " عن النسق الإيديولوجي في الشراع و العاصفة لحنا مينة، مستعينا بانجازات السيمائية السردية التي وجدت فيهاسوسيولوجيا النص تطابقا مع غاياتها.

حدد سعيد بن كراد" هدف دراسة الشخصيات بأنه " لا يقف عند حدود مجموعة من العلاقات الثابتة الربطة بين مجموعة من الكائنات الورقية، إن الأمر يتجاوز هذه الحدود. إننا نهدف من وراء هذه المحاولة الإمساك بكون دلالي (إيديولوجي) يؤطر النص بشكل صريح أو ضمني" (21).

و من ثم فتحديد ماهية الشخصية في النص الروائي ، اتخذ سبيل تحديد مجموع العناصر المشكلة للكون الدلالي المؤطر للنص. يتم الإمساك به من خلال اجرائين:

أ- تتبع مواصفات الشخصية (طابع سكون) .

ب- تحديد الوظائف ورصد علاقتها بوظائف الشخصيات الأخرى.

ولعل ذلك ما جعله يربط بين النسق الإيديولوجي و بنية الممثلين، إما باستنطاق العناصر الخطابية، لتحديد مواصفات الشخصية ووظائفها، بعيدا عن أي سياق خارجي، و إما بإدماج الشخصية الرئيسية (الطروسي في الشراع و العاصفة) داخل النسق العام للشخصيات و استكشاف علاقاتها المختلفة ضمن إطار ثنائية نقابل/ تطابق.

وفق هذه التصور قسم الشخصيات الرواية إلى مجموعتين تضم الأولى، 'الطروسي الأستاذ الكامل ، آب وحميد حليل العريان، مصطفى أم حسن ....' وتضم الثانية' أبو رشيد نديم المظهر ،

إسماعيل كوسا'، أما الشخصيات المتبقية فلا يراها منتمية إلى مجموعة محددة . إن هذا التصنيف قائم على طبيعة العلاقة بين الطروسي "بوصفه نقطة محورية تتقاطع من خلالها باقي الشخصيات. وفق ثنائية التطابق أو التقابل . وهو المنحى نفسه الذي تعتمده السيميائيات السردية في بنيتها العالمية. بناء على ذلك حدد بعض' بنكراد' مواصفات "الطروسي" كشخصية رئيسية يتميز عن باقي الشخصيات الأخرى بالاستمرارية على مستوى السرد و على مستوى القصة .فكل الأحداث المسجلة في الرواية لها مرجع واحد في هذه الشخصية كمشارك أو متفرج أو صاحب مصلحة ، أو موضوع لفعل ما" (22). بل إن بعض الشخصيات لا وجود لها إلا من خلالها . وإذا كان "حنا مينه "قد اكتفى مع بعض الشخصيات بتحديد الدور الوظيفي، دون الإغراق في المواصفات، فإن ذاك التحديد الوظيفي قائم على ما تقيمه تلك الشخصيات مع الطروسي إذ هو الذي يحدد هويتها. يفسره "سعيد بنكراد" بوجود نص إيديولوجي جاهز لهذا النص و يحدد له نمط تحققه"(.....) طغيان الوظيفة على الشخصية التي تقوم بها، يعود إلى هذه الإستراتيجية التي تعد تحققا لمقولة سياسية لها حضورها في السنن السياسي" الطبقة العاملة، المثقف الثوري..."23.

بهذا التفكير فتح "سعيد بنكراد" السيمائيات السردية ، على الإيديولوجيا .

وإن كان أمام هذا الانفتاح مجموعة من الإشكاليات التي لم يقدم "بنكراد" كل أدوات تجاوزها، إذ بأي وسيلة و في أي وقت تحديدا يمكننا اعتبارا نسق ما بأنه حامل لنسق إيديولوجي ، و هل المعنى الذي نسعى الإمساك به، هو نفسه ما نسميه اديولوجيا.

إن الطموح إلى التأسيس لسيمائية سردية تنفتح على الإيديولوجي ، ينطلق من استكشاف طبيعة التسنين السردي الذي يسمح بتحبين ما هو إيديولوجي باعتبار النص التخيلي يسعى إلى الإنتقال من الواقعي إلى التخيلي. و من ثم يصبح البحث عما سردي و ما هو إيديولوجي قائما على تحديد إكراهات الخطاب نفسه مادام توزيع الدلالات يقع تحت سلطة اللغة، و اكراهات سردية مرتبطة بنظام الحكاية وانسجامها.

تقيم دراسة "بنكراد" علاقات وثيقة بين السيمائية السردية و سوسيولوجيا النص الروائي ، وإن كان البحث لا يحوي مرجعا محددا في هذا الحقل، و لا أحال على أداة من أدواته. غير أن ذاك لا ينفي التعانق غير المعلن، فالاتجاهان يسعيان إلى رصد العلاقة بين االبنيات اللسانية و البيانات السوسيولوجية. تتخذ دراسة الإيديولوجيافيها، طابع الظاهرة اللسانية . و الواقع أن سوسيولوجيا النص كما بلورها "زيما" لا تطرح إشكالية العلاقة بين السوسيولوجيا و السيمائية ، حيث تتموقع (..)سوسيولوجيا الأدب على تخوم جدلية مادية ذات صلة بالنظرية النقدية، و على تخوم سيمائية نقدية" (24). و قد تجسدت تلك العلاقة

فيما يسمى Semiocritique الذي تتآزر فيه اتجاهات علم النفس، علم الاجتماع علم العلامات، مما سمح بالجديث عن السوسيولوجيا و السوسيولوجيا مجتمعين. إذا كان تحليل

البيانات السردية قد فتح أمام السوسيولوجيا أفاقا جديدة فإن السوسيولوجيا أبعدت الاتجاهات التسبيقية عن ميكانيكيتها (25). وتلك بعض غابات "زيما"

أظهرت المقاربات العربية المستحضرة لسوسيولوجيا النص الروائي، تباينا واضحا في التعامل مع جهازها المفاهيمي.إلى حد صار كل ناقد يبتدع السبل والأدوات. إما بالجمع التلفيقي وإما بانتقاء أدوات من حقول مختلفة لم يشر إليها "زيما" نفسه. و من ثم صار بالإمكان الحديث عن اتجاهاتها داخل الاتجاه لواحد، وبقدر ما يظهر ذلك إخضاع الأدوات للتجريب من خلال التعديل والتحوير ، بقدر ما يكشف ضبابية المنهج و عدم اتساقه ، الناتج عدول بعض النقاد العرب عن المنطلقات الفكرية لسوسيولوجية النص، بل إن بعضها استدعى إجراءات لم ير فيها "زيما"آية قدرة على استكشاف الدلالات التي على أساسها يتم الربط بين البيانات اللسانية والبيانات السيوسيولوجية ، و الحديث هنا يخص تقنيات السرديات البنيوية و التي لم يجد لا" سعيد يقطين" و لا" عمر عيلان" حرجا في استدعائها.

في ظل تتبع مسارات سوسيولوجية النص في النقد العربي ينبغي الإشارة إلى امتلاك الإتجاه لأكثر من تسمية، فهي عند البعض " سعيد قطين""السوسيوسرديات" وعند "عمر عيلان" "سوسيوبنائية، وقد تتخد تسمية " سوسيونقدية، على الرغم من مرجعيتها الواحدة . مما يدل على أن المنهج لا زال في بدايته، يلتمس طريقا صعب المسالك ، تجاوزها يقتضي جهدا أشاق يقرن التأطير النظري بالممارسة التطبيقية.

الإحالات:

(1) حميد الحمداني، النقد الروائي و الإيديولوجيا من سيوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي ، المركز الثقافي العربي- المغرب 1990 ، ص: 71

(2) بيير زيما ، النقد الاجتماعي نحو على اجتماع للنص الأدبي، تر ، عايدة لطفي، مراجعة ، أمينة، رشيد، سيد البحراوي، دار الفكر و الدراسات والنشر و التوزيع ط 1، القاهرة ، 1991 ، ص، 46.

(3) المرجع نفسه، ص، 49

(4) Voir , lucien Godman, le dieu cache , gallimard , paris, 1979 , p, 26

5) المرجع نفسه، ص، -58-

) 7 –PHILLIPE Haman , texte et ideologie pour une peotique de la norme , P .U .F 6 Paris 1984, P.8

8) ينظر بيير زيما ، النقد الاجتماعي، ص: 176

9) المرجع نفسه، ص، 179.

.) A- J Greimas, Semantique structurale , PUF , Paris Paris , N .edition 1986, P.18110

11) ميخائيل باختين، شعرية ديستوفسكسي، تر، جميل التركي ، دار توبقال للنشر ، المغرب ، 1986، ص، 10.

12) ينظر، سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي "النص –السياق " المركز الثقافي الغربي، المغرب ، 1989، ص، 32 .

15) ينظر المرجع نفسه ، ص، 139.

16) عمر عيلان ، الإيديولوجيا و بنية الخطاب الروائي دراسة سوسيوبنائية رواية عبد الحميد بن هدوقة ، منشورات جامعة منشوري ، قسنطينة ، الجزائر ،2001 ، ص، 68.

17) المرجع نفسه ، صص ، 69–70

18) –المرجع نفسه ، ص، 102.

19) المرجع نفسه ، ص، 108.

20) –أحمد يوسف ، سيمائية العتبات النصية مقاربة في خطاب الإهداء ، مجلة اللغة و الأدب ، العدد 15، الجزائر 2001 ، ص، 172 .

21) سعيد بنكراد ، سميولوجية الشخصيات السردية (رواية "الشراع والعاصفة " لحنا مينة" نموذجا (، مجدلاوي الأردن، 2002. 154

.22) المرجع نفسه، ص، 157.

24) الطاهر روانية، سوسيولوجيا الأدب و سوسيولوجيا الكتابة، مجلة اللغةوالأدب ، ع، 15 الجزائر 2001 ، ص، 9.

25) ينظر ، محمد إنفي، بين سوسيولوجيا و سوسيولوجيا النص الأدبي ملاحظات حول السياق ، مجلة علامات ، ع 13 ، مكناس ، المغرب ، 2000، ص، 99.